

## أسرار الحروف في القرآن الكريم

أ. زينب عقبان

أستاذة في كلية العلوم الإسلامية

القرآن الكريم كلمات انضم بعضها إلى بعض وجمل جمعت فشكلت آيات، وآيات جمعت في سور، وسور جمعت في مصحف شرف واحد<sup>1</sup>. ولكل منها دلالات لغوية، وصوتية، واجتماعية، وغيرها من سائر الدلالات، وركز في هذا المقال على بعض الدلالات الصوتية في القرآن الكريم، إذ حضيت ألفاظ القرآن الكريم المبجلة بالعناية والتشريف لما تحمله من إحياءات ودلالات وأصداء وتأثيرات متنوعة. وإذا كنا نقرأ القرآن الكريم فتصادفنا الألفاظ الكثيرة الشديدة الإحياء، والعميقة الدلالة والبعيدة الأصداء، فإننا لا نستطيع تحمل شوق تأثيراتها وفهم كنهها، وترصد المجالات والمفاهيم والمعاني التي تحوم حولها، والظلال التي تشع منها، حتى نحط رحالنا سالمين غانمين. ومن بين الدلالات التي ذكرها العلماء:

### — دلالة الحروف في القرآن الكريم:

**1. جرف الفاء ودلالاته في القرآن الكريم:** لهذا الحرف القرآني صدى ودلالة تقفز بالمشاعر قفزا، وتنبيه الخاطر تنبيها واضحا لما جاءت عليه من التالي والتتابع البين والجلي في آيات<sup>2</sup> الذكر ويمكن لنا أن نستشف ونستخلص ذلك من خلال الآية الآتية:  
قال عز وجل: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا<sup>3</sup>.  
نلاحظ التعاقب الموجود الذي يصك السمع في دلالة وقوع الأمر دون حائل وبلا فاصل تعبيراً عن الخسران النهائي، والحرمان المتواصل دفعة واحدة، وهنا تلتقي الدلالة الاجتماعية بما يستفاد من معنى لغوي<sup>4</sup>.

يؤكد هذا التوالي بالفاء العاطفة تواليها في النفس يحدثه سرعة الإيقاع، وعدم الانتظار، مما يوحي للسمع والذهن كأنه كتلة واحدة انصهرت موادها كقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ<sup>5</sup>.

وفي مثال سورة الكهف ضرب الله عز وجل مثلاً للدنيا وبهرجها الخادع يشبهه مثل الجنين في الفناء والزوال، والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة الدنيا في زوالها وفنائها وانقضائها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وأفيا غزيراً، وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه بماء نزل من السماء فخرج حتى صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال<sup>6</sup>. فالفاء إذا تحمل في طياتها معنى سرعة فناء الحياة الدنيا.

ومن الأمثلة التي ذكرها القرآن الكريم في ورود هذه الفاء سواء أكان الحرف عاطفا أم رابطا فإن له تقلا كبيرا في الوقع الموسيقي على الأذن.

— قال عز وجل: ﴿ فَأَصَابَهُ وَاِبِلٌ فَتَرَكَهُ صَدًّا ﴾<sup>7</sup>.

— قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَاِبِلٌ فَطَلَّ ﴾<sup>8</sup>.

وهناك آية ذكرها العلماء لكثرة دلالاتها وعجيب تأليفها وكثرة جرسها، ونذكر في هذا الموضوع حروف عطفها والمتمثلة في كثرة تتابع فاءاتها، وجميل نسقها الذي أحدثته هذه الفاءات المعجزات، وهي الآية 29 من سورة الفتح، قال عز وجل: ﴿ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلِظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ﴾<sup>9</sup>. فالتوالي هنا زيادة على جرسه السمعي يوحي إلى النفس نقطة الانتهاء من حقيقة الأمر حتى عاد واقعا دون شك، مقترنا بالدلالة الايمانية في كشف تماسك هذه الجماعة وترابطها، وكذا الزرع في شدة أسرته، وقوة تشابكه<sup>10</sup>.

في مثال آخر تظهر قوة الفاء في سورة الشمس في قوله عز وجل: ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عِقَابَهَا ﴾<sup>11</sup> رواية حفص. تتوالى هذه الفاءات في هذه المواضع من الآيات القرآنية في سورة الشمس، لتبين سرعة وقوع الأحداث وكيفية تتابعها، ونلاحظ في قراءة حفص وجود الواو في الآية 15/ وفي قراءة ورش وجود الفاء.

نشهد مع الآية العظيمة توالي الأحداث الآتية: التكذيب فالعقر فالدمدمة لوقعها الخاص وهي من الألفاظ القرآنية ذات الدلالة المؤثرة.

دمدم: أطبق عليهم العذاب بذنوبهم فأهلكهم، قال الفراء، وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب، وترديده، ويقال: دمدمت على الشيء: أطبقت عليه، وفي الصحاح، ودمدمت الشيء، إذا ألزقته بالأرض، ودمدم الله عليهم، أي أهلكهم، ويقال: والدمدمة: الكلام الذي يزعج الرجل. وفي القاموس: ودمدم الأرض: سواها، وفلانا عذبه عذابا تاما، والقوم: أهلكهم: كدمدم، ودمدم عليهم<sup>12</sup>.

— من الدلالات الصوتية وأسرار الفاءات القرآنية: نكتشف فاءات سورة المدثر في الآيات الأولى الخمس في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾.

اختلف العلماء في المحل الإعرابي للفاء وقدرها تقديرات عدة لتعيين وضبط مكانها في النظم، ووقع الخلاف بين الزيادة والأصالة وهي تحوي سرا من أسرار البلاغة. وقد ذهب الزمخشري في تفسيره الكشاف من أنها جواب شرط مقدر كأنه قيل: "وما كان فلا تدع تكبيره، وما كان فلا تدع طهارة ثيابك، وما كان فلا تدع هجر الرجز، فهذه الفاءات المتعاقبة أحدثت جرسا خاصا في بناء الكلام، فالآيات تبدأ ببناء قوي مثير للانتباه استعمل فيه "يا" التي هي للبعيد، وتكرر فيه التثنية عن طريق "ها" فالمقام مقام تنبيه قوي، فليس الوقت وقت تدثر ونوم.

إن هناك أمورا جليلة تستدعي التنبيه واليقظة وهي الإنذار والتبليغ مع ما يصحب ذلك من أوامر هامة، هي توجيهه إلى تكبير ربه وحده<sup>13</sup>. ربطت الفاءات الكلام ربطا قويا مثلما يربط الجواب بالشرط، فجاء التعاقب على نحو معجز، تظهر علاماته في الجرس الصوتي، وقصر الآيات واتساق الفواصل المنتهية بحرف الراء الذي يحمل صفة من الصفات المهمة وهي صفة التكرار. وليست الفاء في قوله سبحانه ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾<sup>14</sup>. بزائدة- بل هي آية ضمننت ثلاث جمل قصيرة، يوحي قصرها الخاطف بالرهبة في النفس والخوف، فالجملة الأولى مبتدؤها مذكور حذف خبره، فكأنه قال: هذا حق ثابت لا مرأى فيه، وكأنه يشير إلى تقدم من قوله (وهذا وإن للطاغين لشر مآب، جهنم يصلونها فلبئس المهاد). ثم فرع على ذلك العذاب الذي أعد لهم قائلًا: (فليذوقوه) ذاكرا ضميرا يبعث في النفس ترقب تفسيره، ففسره بأن ما سيذوقونه حميم يحرق بحرّه، وغساق يقتل ببرده ولم يذكر العذاب الذي أعد لهم<sup>15</sup>. وخرجه ابن هشام على أن خبر هذا حميم وغساق، لا الجملة الطلبية، وعليه فتأويل الآية: (هذا حميم وغساق، فليذوقوه) وإنما أسرع بالجملة الطلبية تهديدا لهم، وتشفيا منهم<sup>16</sup>.

### 1. حرف الواو: بعض دلالات حرف الواو في القرآن الكريم

للواو دوره أيضا في التعبير القرآني فهو حرف عطف، ويعد من الروابط التي تجمع الأحداث وتضمها بعضها إلى بعض في تناسق عجيب<sup>17</sup>. نذكر مفتتح سورة الانشقاق حيث يعرض القرآن الكريم صورا من التغييرات الكونية للسماء والأرض وانقيادهما التام لله تعالى في قوله جلت قدرته: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾<sup>18</sup>.

لقد ورد العطف في الآيات القرآنية لغرض بلاغي يتناسب ويتلاءم وبلاغة العطف في القرآن الكريم. الواو في (وأذنت) وكذلك (وألقت) أصلية عاطفة، والجواب محذوف، وهذا يدعمه الاقتضاء النحوي بوجهه المتعددة القوية... كما يؤيده السماع، فقد ذكر الفراء أنه لم يسمع جوابا بـ "الواو" في "إذا" مبتدأ- أي ابتدئ بها وليس قبلها شيء- وكذا يدعمه التذوق البلاغي لسر حذف الجواب<sup>19</sup>. نلاحظ هذه الدقة المتناهية في التعبير القرآني في استعمال بعض الأحرف، حيث جاء في العجائب للكرماني: قيل كيف جاء "يسألونك" أربع مرات بغير "واو".

1. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾<sup>20</sup>. 2. ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾<sup>21</sup>. 3. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾<sup>22</sup>. 4. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾<sup>23</sup>.

ثم جاءت ثلاث مرات بالواو:

1. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾<sup>24</sup>. 2. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَمَامَى﴾<sup>25</sup>.  
3. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾<sup>26</sup>.

قلنا لأن سؤلهم عن الحوادث الأولى وقع متفرقا، وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد، فجاء دلالة على ذلك<sup>27</sup>. توضع الحروف في الجملة العربية ليؤدي مهمة خاصة، وتزداد

خصوصية ودقة هذه المهمة في العبارة القرآنية بشكل جلي. يقول عز وجل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾<sup>28</sup>. وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾<sup>29</sup>.

علل الزمخشري<sup>30</sup> ذلك: (وقيل حتى إذا جاؤوها، جاؤوها وفتحت أبوابها، أي مع فتح أبوابها. وقيل أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة، فمتقدم فتحها بدليل قوله: ( جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، فلذلك جيء بالواو كأنه قيل حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها). تمتاز الحروف العربية بأثرها الكبير في التنسيق والانسجام الوارد في العبارة القرآنية، فالدقة في الآية الأولى تشعر النفس بحكم الإيحاء- بانغلاق وانقباض في النفس، وفي الثانية بانسراح النفس وابتهاجها<sup>31</sup>.

— رأي في الحروف الزائدة في القرآن: إن لكل حرف دلالة فنية تدخل في عناصر الصورة، أو أجزاء الجملة، ففي قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>32</sup>.

يسوق رأي ابن هشام في (مغنى اللبيب، وأنه لم يرتض زيادة (إذ) ورأي صاحب الكشاف الذي يذهب إلى أن (إذ) منصوبة بإضمار الذكر، ويجوز أن ينتصب بقالوا، وعليه فليست زائدة. والربط بين الآيتين، هذه التي ذكرناها، والتي قبلها، وهي قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾<sup>33</sup>. يدل على أن الآيتين سيقتا في الخلق والتغيير والتبديل، فالخلق منصب على الأرض وما فيها، والسماء، وما فوقها، والتغيير والتبديل خاص باستخلاف الله آدم في الأرض<sup>34</sup>. فلما فرغت الآية الأولى من تقرير وتوكيد خلق الله للأرض، ثم استوائه إلى السماء وتسويتها سبع سموات، خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، مع خلق ما في الأرض على حساب حاجات أهلها ومتطلباتهم.

لما فرغت الآية من تقرير ذلك كله، برز لون جديد من القدرة الإلهية، في كلمة (إذ) التي توحى بهذه المعاني والتي تسقط في روع القارئ، بأن يقف هنا قليلا، والتي تبعث في نفس محمد ﷺ أن يكون على وعي تام بأسرار الخلق وأسرار الخليقة التي انكشف بعضها أمامه بصنع ربه. فكلمة (إذ) ضرورية في التركيب، لاشتمالها على دلالات لا تفهم بدونها، وسواء كانت منصوبة بالذكر محذوفة، أو بقالوا: في الآية فإنها تبعث في النفس كل هذه التأملات<sup>35</sup>. وكذلك أسلوب القرآن لا يسير على وتيرة واحدة بل يقف بين الحين والحين في الأخبار أو القصص وقرأتها في غاية في الفنية، وتدعو إلى التأمل العميق، ولعلك تتأكد من ذلك بنفسك، لو قرأت هذه الآية التي تذكر استخلاف الله آدم في الأرض، ورد الملائكة عليه، والآية التي تنتهي لم تذكر تعليم آدم أسماء المسميات، وعجز الملائكة عنها، والآية التي تنتهي بعلم آدم بالأسماء دون

الملائكة فانظر بعد ذلك، فستجد القرآن يذكر (إذ) مرة ثانية في مطلع هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>36</sup>.

والتذكرة واستطاع حكمة ما وراء الخلق، وما وراء الخليفة فهي جزء ضروري في تركيب الآية، لها دلالتها التي تدخل في صميم فن القول، ويجيء تاليا لقصة آدم في صورة بقرة بني إسرائيل<sup>37</sup>. فنجد قصة بني إسرائيل تتصدر بكلمة (اذكروا) بعد النداء مباشرة، ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾<sup>38</sup>.

وتجيء الثانية في قوله عز وجل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾<sup>39</sup>. وتجيء بعد ذلك كلمة (إذ) وحدها مجردة من كلمة (اذكروا) خمس عشرة مرة، في مطلع هذه الآيات: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾<sup>40</sup>. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾<sup>41</sup>. ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾<sup>42</sup>. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾<sup>43</sup>. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾<sup>44</sup>. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾<sup>45</sup>. ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾<sup>46</sup>. ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾<sup>47</sup>. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾<sup>48</sup>. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾<sup>49</sup>. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقَرَةً﴾<sup>50</sup>. ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾<sup>51</sup>. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾<sup>52</sup>. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾<sup>53</sup>. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾<sup>54</sup>.

ثم تتولى قصة إبراهيم بعد ذلك، أو طرف من قصة إبراهيم، وتذكر كلمة (إذ) خمس مرات تجيء في مطلع هذه الآيات<sup>55</sup>: ﴿ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾<sup>56</sup>. ﴿إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾<sup>57</sup>. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾<sup>58</sup>. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾<sup>59</sup>. ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لرب العالمين﴾<sup>60</sup>.

هل يتصور عاقل بعد ذلك أن الكلمة (إذ) زائدة في كل هذه الحالات؟ أو أن القرآن ذكر عاملها قليلا وحذفه كثيرا تمشيا مع طريقته المعجزة في الذكر والحذف والإحياء؟ كما يمكن ذكر استعمال (إذا) في بعض الآيات القرآنية ومثال ذلك في قوله عز وجل ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾<sup>61</sup>.

نلاحظ دلالة إذا في الآية القرآنية الدالة على المفاجأة فيحدث ما أنكروه بسرعة فائقة. (إنما تفيد القصر والتخصيص، أي زجرة واحدة، وليست أكثر من ذلك، وليست صعبة ولا مستعصية على قدرة الله سبحانه، والزجرة هي الصيحة التي يحدث بموجبها إحياء الموتى في قبورهم... والساهرة: الأرض البيضاء المستوية، وسميت ساهرة لأن سالكها لا ينام خوفا منها، ويطير النوم من أجفانه)<sup>62</sup>.

نبين في هذا المضمار كيفية توالي استعمال الفاء وإذا ودالتهما في سورة النازعات في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾<sup>63</sup>. الفاء الفصيحة للتفريع ما يفيد قولهم: "أينا لمردودون في الحافرة إذا كنا عظاما نخرة" من إحالتهم الحياء بعد البلى والفاء. فتقرير الكلام: لا عجب في ذلك فما هي إلا زجرة واحدة فإذا أنتم حاضرون في الحشر. وفاء (فإذا هم بالساهرة) للتفريع على جملة "إنما هي زجرة واحدة" و(إذا) للمفاجأة، أي الحصول دون تأخير فحصل تأكيد معنى التفريع الذي أفادته الفاء وذلك يفيد عدم الترتيب الزجرة والحصول في الساهرة<sup>64</sup>. والإتيان بإذا الفجائية للدلالة على سرعة حضورهم بهذا المكان عقب البعث، وعطفها بالفاء لتحقيق ذلك المعنى الذي أفادته (إذا) لأن الجمع بين المفاجأة والتفريع أشد ما يعبر به عن السرعة مع إيجاز اللفظ. والمعنى: أن الله يأمر بأمر التكوين بخلق أجساد تحل فيها الأرواح التي كانت في الدنيا فتحصر في موقف الحشر للحساب بسرعة<sup>65</sup>.

يعرض القرآن الكريم صوراً من المتغيرات الكونية للسماء والأرض وجلال خلقه وعظيم سلطانه في آيات من الذكر الحكيم في مفتح سورة الانشقاق. قال عز وجل: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأُنزِلَتْ لَرَبِّهَا وَحُفَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأُنزِلَتْ لَرَبِّهَا وَحُفَّتْ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَأْتَهُ فَمَا مِنْ أَوْتَىٰ كِتَابِهِ بِبِمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾<sup>66</sup>.

حصل خلاف بين العلماء بزيادة ولو (وأذنت) وذلك لتضارب الآراء حول جواب إذا المتكررة. فهناك من قال بأصالة "الواو" على أنها عاطفة وهم كثرة واعتمدوا على وجوه مختلفة في جواب (إذا). من بينها ما ذكره ابن جني: (من أن جوابها محذوف تقديره: عرف كل واحد ما صار إليه من ثواب أو عقاب)<sup>67</sup>. وهذا ما بينه الطبري (في جامع البيان في كتابه معاني القرآن) وهو امتداد لرأي الفراء: في كتابه معاني القرآن ودليل ذلك قوله تعالى: (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) والآيات بعدها<sup>68</sup>.

إن نظرة متأنية لقوام الآيات يعطينا إشعاعاً من ضوء يدرك به إيداع تناسق هذا النص القرآني موازناً بما قبله في سورتي التكوير والانفطار، ففي التكوير بدئت السورة باثني عشر شرطاً متعاطفاً، وليس بينها جمل متعاطفة أخرى داخلية في حيز أحد الشروط، ثم يأتي الجواب: (علمت نفس ما أحضرت) تفصيلاً لتلك الأعمال. وفي الانشقاق بدئت السورة بشرط وجملة معطوفة عليه، ثم شرط آخر معطوف على الأول، يعقبه جملتان متعاطفتان داخلتان في حيزه، والجواب محذوف في الشرطين)<sup>69</sup>. تنبهنا هذه الآيات إلى حقيقة الحياة، لتتوجه النفس الإنسانية إلى ربها راضية مرضية يتخيلها الجواب ثواباً أو عقاباً، ونلمح دقة النظم القرآني في إيثار (إذا) الشرطية، وما ترشد إليه من تحقق وقوع تلك المتغيرات، حيث ترد العبارة بالماضي لتؤكد كينونتها، وإن كانت أفعالاً مستقبلية (انشقت....أذنت....) وفي تكرار "إذا" ضرب من التوكيد

الذي يقتضيه المقام<sup>70</sup>. وبنى التعبير بالمعلوم المطاوع (انشقت) عن التلقائية والطواعية، وعنف الفعل في الوقت ذاته، وامتداد قوته وتأثيره.

وقد دفع الكرمانى ما يتوهم من تكرار في قوله تعالى: (وأذنت لربها وحقت)، حين ذكر مرتين: فبين أن الأول متصل بالسماء، والثاني متصل بالأرض.

2. تبيان أسرار (إذا) في سورة التكويد: قال عز وجل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ وَإِذَا الْعُشَارُ عَطَلَتْ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُحْضِرَتْ﴾<sup>71</sup>.

الافتتاح بـ (إذا) افتتاح مشوق لأن (إذا) ظرف يستدعي متعلقا، ولأنه شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده فعندما يسمعه يتمكن من نفسه كمال التمكن، وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة (إذا). وتعدد الجمل التي أضيف إليها اثنتي عشرة مرة، فإعادة كلمة (إذا) بعد واو العطف في هذه الجمل المتعاطفة إطناب، وهذا الإطناب اقتضاء قصد التهويل، والتهويل من مقتضيات الإطناب والتكرير. وقد دخلت إذا هنا على اسم وليس على فعل، وهذا الأسلوب لقصد الاهتمام بذكر ما أسند إليها<sup>72</sup>. "وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده، الكون المنسق الجميل، الموزون الحركة... المتين الصنعة.... أن هذا الكون سينفطر عقد نظامه، وتتناثر أجزاءه... وينتهي إلى أجله المقدر، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق...".

وهذا ما تستهدفه السورة إقراره في المشاعر والقلوب، كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة- مهما بدت لها ثابتة- وتتصل بالحقيقة الباقية... حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول<sup>73</sup>.

3. تبيان أسرار "الباء" في القرآن الكريم: قال عز وجل: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي نَبَسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُؤَسُّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾<sup>74</sup>.

هذا مقام يؤكد البعث ببراهين عديدة من إثبات صفات الله وأثار صفاته. اختلف العلماء حول " الباء " المتصلة بالضمير هل زائدة أم أصلية، وفي القول في أصلتها لا بد من ذكر دورها، وحتى تكشف اللثام عن دور الباء العزيزة في هذا المقام، نذكر آية أخرى من آيات الذكر الحكيم، وقبل ذلك نشير إلى أن مادة الوسوسة قد تكررت أربع مرات في القرآن الكريم، أحدها الآية التي ذكرناها التي تعدى فيها بـ "الباب" أما الثلاث الآخر فقد تعدى الفعل فيها مرة بـ (في) متمثلا في قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُؤَسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾<sup>75</sup>، وأخرى بـ (اللام) في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾<sup>76</sup>. وثالثة بـ (إلى) في قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾<sup>77</sup>.

والملاحظ أنه لما كانت الوسوسة من الشيطان عدي بغير "الباء" ولما كان من الإنسان عدي الفعل بها. وعلى هذا فقد أبانت " الباء " أبلغ إبانة عن شدة التصاق هذه الوسوس بصاحبها، وأنها كائنة في حضرته، وأنها تسد عليه منافذ قلبه دون سواها ولذلك ناسب تقديم الجار والمجرور (به) على الفاعل (نفسه)<sup>78</sup>. وقد كشفت الآية أن علم الله محيط بهذه الوسوسة الملتنقة بنفس الإنسان والتي تخالطه ولا تكاد تبين، والله سبحانه وتعالى غلام الغيوب، وكاشف الدروب، ومطلع على القلوب. تنثي الآيات على سليمان - عليه السلام - بأنه أواب لربه، ونذكر قصته مع الخيل حين عرضت عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشيِّ الصَّافِيَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾<sup>79</sup>.

وقع خلاف بين العلماء في الباء (مسحا بالسوق) والقائلون بالأصالة يجنحون إلى أن المسح هو مسح باليد استحسانا وتكريما لها. هناك من ذكر آية المسح في قوله عز وجل: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾<sup>80</sup>. ليستدل بها على أن المسح ليس للقطع، وفسر الآية السابقة على أن المسح للسوق والأعناق تشريفا لها، وامتحانا ليعلم سليمان هل فيها من مرض، وإظهارا لمباشرته أكثر الأمور بنفسه في شؤون السياسة والملك<sup>81</sup>. أما الآية الأخرى المذكور فيها فعل المسح فهي قوله عز وجل: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾<sup>82</sup>. ذكرت في هذه الباء ثلاثة آراء هي: الإلصاق، والتبويض، والزيادة على أنه أسلوب عربي.

نستخلص المعنى الأصلي للباء والمتمثل في معنى الإلصاق الذي هو المعنى الأصلي لـ "الباء"، وهذا توافق مثير، وهو أدل على هذا الحب الشديد والانشقاق من النبي سليمان - عليه السلام - على تلك الخيول الجميلة (في الآية الأولى السابقة الذكر) التي تؤدي دورا بالغا في سبيل الله<sup>83</sup>. جاءت " الباء " وسط هذا السياق المفعم بروح التوجس والحذر والخوف، وما يطوي من شعور الأمومة الغلاب - معللة لهذا الفعل الدال على شدة أسفها إن أذيع أمرها. وقد أعان حذف المفعول على تصوير هذه المشاعر "المتزاحمة" المتباينة المتداخلة النائرة في قلب الأم الرؤوم. نذكر في هذا المقام أول ما أوحى للرسول صلى الله عليه وسلم في مقام التبليغ والتوجيه الإلهي. قال عز وجل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾<sup>84</sup>. قال ابن عاشور أن تكون باء المصاحبة على أن يكون المجرور في موضع الحال إليك مصاحبا قراءتك بين ضمير (اقرأ) الثاني مقدما على عامله للاختصاص، أي اقرأ ما سيوحى إليك مصاحبا قراءتك اسم ربك<sup>85</sup>.

يظهر جليا قوة هذه الباء في دلالتها على الاستعانة برب السموات والأرض رب العالمين الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم (لقد كان هذا الوحي الإلهي يوجه النبي - صلوات الله وسلامه عليه - إلى القراءة أولى خطوات طريق الدعوة إلى الله تعالى، وهي ليست مطلق قراءة، وإنما قراءة تصطب وتلابس وتستحضر اسم الله الأعظم، فهي إذا قراءة تطمئن بها هذه النفس الهلعة الفزعة القالعة في ذلك الركن القصي من الغار اطمئنانا وتفرغ به إلى الله



تعالى، فيقوى القلب وتركن النفس وتتغمر الروح بفيض اليقين، فلا يداخلها ولا يصاحبها ولا يلبسها إلا اسمه العظيم<sup>86</sup>. نجد أيضا في موقف آخر وهو موقف الإنفاق في سبيل الله جاءت " الباء" في مقام الحض على الإنفاق في سبيل الله، وأن تارك ذلك هالك، كما في قوله تعالى، ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>87</sup>.

"وفي الأمر بالإنفاق استثارة للقلوب، ودفع لها نحو الخير بالتقرب من الله تعالى وطاعته من خلال ماله... وقوله ( ولا تلقوا... ) نهي بليغ عن ترك النفقة في سبيله، من خلال النهي عن التسبب في إتلاف النفس بأي وجه من الوجوه، وفي التعبير القرآني من النهي بالإلقاء باليد دلالة على معنى العجز والضعف والاستسلام فهو فعل العاجز، وفي ذلك شحن لقوى المسلمين نحو الخير والفوز<sup>88</sup>. أما فيما يخص الباء فقبل تحمل معنى السببية (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)، إما على حذف المفعول، والتقدير: (ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم) ذكر ذلك الراغب (المفردات: 70/ ونقله الزمخشري مضعفا (الكشاف: 1: 119، والرازي، وأبو حيان (التفسير الكبير 5: 136. (وتفسير البحر المحیط: 2: 71) ونسبه المرادي إلى المبرد (الجنى الداني، 52) ونقل الزركشي عن الجمهور أنها لا تزداد، وحذف المفعول اختصارا، ونقل في موضع آخر أن المعنى: لا تلقوا أنفسكم بسبب أيديكم (جامع البيان، 2، 205). فالإلقاء إلى التهلكة في الإنفاق لا يكون إلا بسبب من اليد، إذ هي أدواته، إن المتتبع لفعل الإلقاء في القرآن الكريم نجده في الآية السابقة وفي قوله عز وجل: ﴿تَلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾<sup>89</sup>. ولكن الملاحظ أننا لا نجد هذه الباء في قوله مثلا: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾<sup>90</sup>.

إن هناك في الآية الربانية تناسقا في المشاهد المعجزة أو تناسقا صوتيا لا نجده لو جاءت العبارة القرآنية، (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ)، وهو وجه لا يتأتى في كلام فصحاء البشر، فكيف يتصور تأتية في كلام الله المعجز<sup>91</sup>.

**مثال آخر الترغيب في الإيمان:** من أسرار الباء الربانية ورودها في موقف من مواقف الإيمان بالله والترغيب فيه، ونلاحظ هنا في الآية القرآنية الجليلة كيفية مجيء حروف تنبئ عن دلالات لا نجدها في غيرها، وقال عز وجل: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>92</sup>. تدل الباء على الملازمة، أي ملازمة الإيمان بالمشركين، مثل ملازمة المؤمنين به، وهكذا فالتصاق الإيمان بصاحبه أبعث على الخير وأهدى للصالح وأدعى للفلاح وقوله: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا) وهو حث على صفة الإيمان المماثل لإيمان المؤمنين حقا بهذه النبرة المرغبة وفي جملة الشرط والذي ربط الاهتداء بالإيمان، وجاءت إن لعدم توقع إيمان الكافرين، وهو من جانب آخر حث لهم على الإيمان وحفز لهم عليه...<sup>93</sup>.

نكشف سرا من أسرار الباء الربانية في الآية القرآنية الآتية: في مقام المجازة تشريعاً: (مقام الحض على المجازة بالعدل حال الاعتداء، وعدم الظلم حتى مع المشركين قال تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>94</sup> .

إن المتمتع في الآية الكريمة يمتلكه إحساس مفعم بروح العدل المتمثل في الحض على مواجهة أعداء الله الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم، فجعلت الاعتداء الثاني مقيدا بالمثل وأنت " الباء " لتحدث فضل معنى لن تجده بدونها، إذ هي للسبب، فالاعتداء يكون بسبب مماثل للاعتداء. وسمي الاعتداء اعتداء تزهيدا للنفوس في طلبه. ولا يغفل ما في حرف (الفاء) من بيان لسرعة المجازة وترتيبها فلا تسامح ولا عفو في استيفاء الحدود بل نفرة رادعة للباطل، ونصرة الله وإعزاز للمسلمين. قال عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>95</sup> . قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>96</sup> .

جاء الحديث في الآيات الكريمة عن أصالة الباء الموجودة في قوله عز وجل: (جزاء سيئة بمثلها) على أساس ترجيح أن الباء ما بعدها هو الخبر، والتقدير: جزاء سيئة كائن بمثلها، وقد ذكره الفراء على أن (جزاء) مرفوع بـ "الباء" ونقله الطبري، وابن جني والرازي والعكبري، وغيرهم<sup>97</sup> . والشيء الملفت للانتباه في هذه الآيات الحكيمة الموازنة الدقيقة، بين المحسنين والمكتسبين للسيئات، ويشكل نسق الآيتين على نمط بنائي خاص جرسا قويا عنيفا مؤثرا جدا، لا نجده إن لم يأت على هذا النحو، من حيث كثرة الحذف وما تحفل به الآيتان من ألوان التقابل البديع المذكورا ومفهوما.

1. تبيان أسرار "أن": قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَنَّمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. تحدث دراز عن الدور الخطير الذي تلعبه "أن" في الأحداث فلما تفيد توقع الحدث، وترقبه الشوق إليه مما يدفع إلى سرعة حدوثه. فتأتي في هذا السياق أن مفيدة للبطء والتراخي والتمهل، فنحس بالمجادبة بين دلالة الآيتين (أن، لما) إثارة للنفس والوجدان، وتوهجا في الأسلوب، وأن هذا التأخير قد أشعل الشوق إلى تحقيق الحدث واستنفذ طاقة النفس، فإذا ما وقع بعد بطء، كان تخففا من عبء نفسي كبير.

إن " أن " هنا بما أفادته من تمهل وتراخ، اقتضته رحلة البشير، زادت عاطفة الحب أوارا، وأثارت كوامن يعقوب وأشجانه، وجعلت انتظاره نارا. وقد كان للكرماني والاسكافي رأي في ذلك فأتبوتوا " أن " دالة على وقوع الجواب في الحال من غير تراخ، وهذا مؤداه إلى أن إلقاء القميص وقع مجيء البشير من غير بطء وتراخ، وكأن ارتداد البصر تكملة للجواب. فلـ " أن " دلالتان متباينتان:

1. إحداهما: تصور التراخي والبطء والتمهل.

2. والأخرى: تصور السرعة والفورية في وقوع الجواب بدون تراخ ولا بطء.

ولا يفسر مثل ذلك إلا في ضوء المشاعر المتزاحمة داخل القلب البشري وما يطويه من رغبات متباينة ورؤى متقابلة.

رأي الرافعي في سر أن وما: من الأمثلة التي ذكرها مصطفى صادق الرافعي لإثبات دلالات الحروف ونذكر ما يلي: قال عز وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾<sup>98</sup>. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾<sup>99</sup>. فإن النحاة يقولون: إن "ما" في الآية الأولى و"أن" في الثانية زائدتان، أي في الإعراب، فيظن من لا بصر له أنهما كذلك في النظم ويقيس عليه، مع أن في هذه الزيادة لونا من التصوير، لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته. فإن المراد بالآية الأولى، تصوير لين النبي - صلى الله عليه وسلم - لقومه، وإن في ذلك رحمة من الله، فجاء هذا "المد" في "ما" وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية لا يبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق<sup>100</sup>.

نلاحظ بعد ذلك السر الخفي في حرف "الباء" في الآية الأولى والذي يدل دلالة قاطعة وقوية على قيمة الرحمة فيه (فبها رحمة من الله لنت لهم). اعتنى الرازي في التفسير الكبير عناية فائقة بتبيين الفرق بين أن الواردة قصة (لوط) في سورة العنكبوت الآية 33 ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾<sup>101</sup>. وعدم مجيء أن في قصة إبراهيم في ذات السورة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانَوَا ظَالِمِينَ﴾<sup>102</sup>.

فقال: "الواقع في وقت المجيء هناك قول الملائكة (إن مهلكوا) وهو لم يكن متصلا بمحببتهم لأنهم بشروا أولا وليبثوا، ثم قالوا إنا مهلكوا، وأيضا فالتأتي واللبت بعد المجيء، ثم الإخبار بالأملك حسن، فإن من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به، والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم، والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئا من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير. إذ علم هذا فقوله ههنا (ولما أن جاءت رسلنا) يفيد الاتصال يعني: خاف حين المجيء) وفكرة الاتصال وعدمه هذه التي يستند عليها الرازي لعلها مقابل لفكرة التراخي وعدمه، وقد عقب الرازي بقولته المشهورة بأنه: "ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلا"<sup>103</sup>.

قصة موسى عليه السلام: وردت "أن" في قصة موسى - عليه السلام - وقد استصرخه يهودي "غوي" مبين على عدوله ليقنتله، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ

فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتَلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ<sup>104</sup>. أكد ابن الأثير على أصالة أن وإفادتها التراخي والبطء، ولم تكن مسارعة موسى عليه السلام إلى قتل الثاني كما كانت مسارعة إلى قتل الأول. وتوحي العبارة القرآنية الجليلة بحدوث تريث ومهلة زمنية وصعوبة في الاسترسال في القراءة الصوتية للآية، وذلك لتوالي أن مرتين ويفصل بينهما الفعل أراد (أن أراد أن) فيها تريث في أن الأولى والثانية وهذه الدلالة الصوتية المبهرة العظيمة نستخلصها من الأداة أن، وكيفية تواجدها في السياق والمعنى الذي أضافته يعطي إشارات تنبيهية إلى الفكر البشري بحدوث أمر يتطلب مهلة، واستشعار توقف عن الفعل وكأن هناك جدار صد أو مهمل.

وعبرت "أن" في الموضع الآخر وهو قول المصري: (أتريد أن تقتلني) وهو جواب لا يخلوا من مخالطة وذكاء، وهو تعبير عن المشاعر المتباينة: استنارة للقتل، وحث عليه من الغوي، ويقظة موسى عليه السلام<sup>105</sup>: فلا ريب أن زما طويلا يستغرق أمثال هذه المشاعر، وكان "أن" حوت زما قضاة موسى في التفكير ليأتيه جواب المصري في سرعة شديدة (والله أعلم).

5. تبيان أسرار ثم: ثم حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، والترتيب، والمهلة وفي كل منها خلاف على رأي ابن هشام<sup>106</sup>.

يصور لنا القرآن الكريم مشاهد كثيرة في سرعة حدوث الحركة مثلما نلاحظ هنا ببطء الحركة مع اكتشاف سر من أسرار الحروف ويتضح ذلك في قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾<sup>107</sup>. يعرض في القسم الأول وصول الماء الذي يستغرق هذه الفقرات، ويبين في هذه المراحل: فالرياح تثور، فتثير السحب في السماء- كما يشاء الله- فيتراكم المطر من السماء، فيستبشر به من ينزل عليهم بعد أن كانوا يائسين<sup>108</sup>. وانظر كيف يعرض القسم الثاني بعد وصول الماء: قال عز وجل: ﴿الْم تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطَامًا﴾<sup>109</sup>.

هكذا في تراخ بـ " ثم " وفي تمهل وبطء، فالماء ينزل فلا يختلط بالأرض، ولا بنيات الأرض، إنما يسلك ينابيع، ثم يخرج به زرعاً... ثم يهيج فتراه مصفراً" وفي الوقت مهلة لتراه، ثم " يجعله حطاماً " يجعله " وهناك " أصبح هشيماً " أو " يكون حطاماً " كأنما يصبح بنفسه، أو يكون بلا مصير ولا فاعل، وهنا جعله " حطاماً " ثم بقي على هذه الهيئة، وهناك " تذروه الرياح " فلا يبقى له أثر<sup>110</sup>. إنه هنا في معرض بيان النعم الإلهية، فبطء عرضها، ولبث صورها وتملي مشاهدتها أجدد بالموقف، ولهذا تستمتع بكل هذا الوقت الطويل<sup>111</sup>. يأتي طول بعض المشاهد

مثيرا لاستغراق النفس فيما تشمل عليه وما تشير إليه، لتصل إلى الحقيقة الدينية الكبرى، حقيقة التوحيد فنذعن بعد معرفة وإدراك. نلاحظ استعمال " ثم " في سياق آخر من السياقات القرآنية المعجزة ونذكر بعض الآيات في عام العسرة، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾<sup>112</sup>.

وجاء القول بزيادة " ثم " في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ لما اختلف في جواب " إذا ". فالقائلون بالأصالة على أن " ثم " هي العاطفة، إما على أن الجواب محذوف وهو المعطوف عليه، وإنما اختلف في تقديره. فقدره الرضى: ألهمهم الإنابة. وقدره النيسابوري، تاب عليهم وعلل لحذفه لتقدم ذكره<sup>113</sup>. وفي قوله تعالى: (وعلى الثلاثة) متعلق ما قبله، أي ولقد تاب الله على الثلاثة... وقوله تعالى: (حتى ضاقت)... مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون فيها مكانا فيه قلقا وجزعا... (وضاقت عليهم أنفسهم) أي: "قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم". وجواب "إذا" محذوف مدلول عليه بصدر الكلام كما قالوا، وتصادفنا هنا "ثم" في السياق الآتي (ثم تاب عليهم) العطف فيه على الجواب المقدر. و"ثم" تدل على التراخي الشديد لزم الكرب واشتداد المكاره، وصعوبة الابتلاء ترقب اليسر بعد العسر، ومواجهة الأعداء حتى جاءهم الفرج، وانداحت التوبة<sup>114</sup>. ويؤيد الواقع معنى التراخي فقد لبث الابتلاء 50 ليلة.

ولابن يعيش تعليل لمعنى التراخي الكائن في " ثم " : لما تراخي لفظها بكثرة حروفها تراخي معناها، لأن قوة اللفظ مؤدنة بقوة المعنى<sup>115</sup>. وذكر البقاعي أن التعبير بـ " ثم " يمكن أن يكون إشارة إلى عظيم ما قاسوا من الأهوال وما ترقبوا إليه من مراتب الخوف<sup>116</sup>. وقال ابن عاشور إن " ثم " هنا للمهلة والتراخي الزمني وليست للتراخي الرتبي، لأن ما بعدها ليس أرفع مما قبلها بقريضة السياق<sup>117</sup>. بالإضافة إلى هذه الآراء في دقة استعمال ثم، فقد ورد رأي يثير العجب والإعجاب إذ يجمع بين المتناقضين وهو دلالة ثم عن المفاجأة والتراخي في وقت واحد.

## – الهوامش:

- 2.1. خالد الجندي، شهد الكلمات في رحاب سورة الفاتحة، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط1، ص204
3. الكهف: 45
4. محمد حسين علي الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني، دار الرشيد للنشر 1981، نشرات وزارة الثقافة والاعلام الجمهورية العراقية، ص241
5. سورة البقرة، الآية: 266
6. فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، دراسة تاريخية فنية مقارنة منشأة المعارف بالاسكندرية، ص380
7. سورة البقرة، الآية: 264
8. سورة البقرة، الآية: 265
9. سورة الفتح، الآية 29
10. محمد حسين علي الصغير، الصورة الفنية في المثل القرآني، ص242
11. سورة الشمس، الآيات 13-15
12. محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم، دار اليمامة، دمشق، بيروت، ط7، 1999، ج8، ص328-329
13. هيفاء عثمان عباس فدا، زيادة الحروف بين التأييد والمنع وأسرارها البلاغية، دار القاهرة، ط1، 2000، ص 557-558
14. سورة ص: الآية 57
15. فتحي أحمد عامر بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، دراسة تاريخية فنية، مقانة منشأة المعارف بالاسكندرية/ ص307، 308
16. المرجع نفسه، ص100
17. هيفاء عثمان عباس فداء، المرجع السابق، ص 533
18. سورة الانشقاق، الآيات 1-7
19. هيفاء عثمان عباس فداء، المرجع السابق، ص 537
20. سورة البقرة، الآية 189
21. سورة البقرة، الآية 215
22. سورة البقرة، الآية: 217
- 24.23. سورة البقرة، الآية: 219
25. سورة البقرة، الآية: 220
26. سورة البقرة، الآية: 222
27. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة الحسيني، القاهرة، ج2، ص114
28. سورة الزمر، الآية: 71

29. سورة الزمر، الآية: 73
30. الزمخشري، الكشاف عن الحقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، دار المعرفة، بيروت، ص 147
31. عمر السالمي، الاعجاز الفني في القرآن الكريم، ص 110
32. سورة البقرة، الآية: 30
33. سورة البقرة، الآية: 29
34. فتحي أحمد عامر، المرجع السابق، ص 304
35. المرجع نفسه، ص 305
36. سورة البقرة، الآية: 34.
37. فتحي أحمد عامر، المرجع السابق، ص 306
38. سورة البقرة، الآية: 40
39. سورة البقرة، الآية، الآية: 47
40. سورة البقرة، الآية: 49
41. سورة البقرة، الآية 50
42. سورة البقرة، الآية: 51
43. سورة البقرة، الآية: 53
44. سورة البقرة، الآية: 54
45. سورة البقرة، الآية: 55
46. سورة البقرة، الآية: 58
47. سورة البقرة، الآية: 60
48. سورة البقرة، الآية: 61
49. سورة البقرة، الآية: 63
50. سورة البقرة، الآية: 67
51. سورة البقرة، الآية: 72
52. سورة البقرة، الآية: 83
53. سورة البقرة، الآية: 84
54. سورة البقرة، الآية: 93
55. فتحي أحمد عامر، المرجع السابق، ص 307
56. سورة البقرة، الآية 124
57. سورة البقرة، الآية 125
58. سورة إبراهيم، الآية: 35
59. سورة البقرة، الآية 127
60. سورة البقرة، الآية 131

61. سورة النازعات
62. عبد القادر حسين، البلاغة القيمة لآيات القرآن الكريم، دار غريب للطباعة والنشر (جزء عم) القاهرة 1998، ص20
63. سورة النازعات، الآيتين: 13-14
64. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتتوير، دار سحنون، تونس، المجلد 15، ص 72
65. نفس المرجع، ص 73
66. سورة الانشقاق، الآيات 1-8
67. ابن جني، سر صناعة الاعراب، ج2، 647
68. هيفاء عثمان عباس فدا، زادة الحروف بين التأييد والمنع، ص 535
69. نفس المرجع، ص 538
70. المرجع السابق، ص 535
71. سورة التكوير، الآيات 1-14
72. محمد الطاهر بن عاشور، المرجع السابق، ص 140-141
73. سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد6، الأجزاء: 25/30/ ص 37-38
74. سورة ق، الآيات 15-16
75. سورة الناس، الآية 5.
76. سورة الأعراف، الآية 20
77. سورة طه، الآية 120
78. هيفاء عثمان عباس فدا، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 363-365
79. سورة ص، الآية 30-33
80. سورة المائدة : الآية 6
81. المرجع نفسه، ص 371-372
82. سورة العلق : الآية 1
83. الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتتوير، ج30، ص436
84. هيفاء عثمان عباس فدا، المرجع السابق، ص 387
85. سورة البقرة، الآية 195
86. هيفاء عثمان عباس فدا، المرجع السابق، ص 401
87. سورة الممتحنة، الآية 1.
88. سورة النحل: الآية 15
89. هيفاء عثمان عباس فدا، المرجع السابق، ص 404
90. سورة البقرة، الآية 137
91. هيفاء عثمان عباس فدا، المرجع السابق، ص 434-436
92. سورة البقرة، الآية 194
- 93.



94. سورة يونس: الآية 26
95. سورة يونس: الآية 27
96. هيفاء عثمان عباس فداء، المرجع السابق، ص 427
97. سورة يوسف الآية 96
98. سورة آل عمران: الآية 159
99. سورة يوسف: الآية 96
100. هيفاء عثمان عباس فداء، المرجع السابق، ص 350
101. سورة العنكبوت، الآية 33
102. سورة العنكبوت: الآية 31
103. الفخر الرازي، التفسير الكبير، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي بيروت، ص62
104. سورة القصص : الآية 18-19
105. عثمان عباس فداء، زيادة الحروف بين المنع والتأكيد، ص 310
106. ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، بيروت 1995، ج1، ص135
107. سورة الروم: الآية 48
108. فتحي أحمد عامر، بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، ص381
109. الزمر: الآية 21
110. فتحي أحمد عامر، المرجع السابق، ص381
111. سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت 1989، ص 111-121
112. سورة التوبة: الآية 117-117
113. هيفاء عثمان عباس فداء، المرجع السابق، ص 737
114. المرجع نفسه، ص 741-749
115. ابن يعيش، شرح المفصل، تصحيح وتحقيق: جماعة من العلماء، ج8، ص96
116. ابراهيم عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، بيروت، لبنان، الدار العلمية، 1999، ج9، ص40-41
117. ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج11، ص53

## المخلص

للحروف في القرآن الكريم دلالات مختلفة من بينها الدلالة الصوتية ذات الأبعاد التأثيرية البلاغية وسيوضح ذلك من خلال ذكر أسرار بعض الحروف القرآنية مثل حرف الفاء ودلالته على السرعة دلالة إذا على المفاجأة ودلالة الباء على السببية ودلالة إن على البطء والتراخي والتمهل من جهة ودلالته كم جهة أخرى على تصور السرعة والفورية في وقوع الجواب بدون تراخ ولا بطء وغيرها من الدلالات الصوتية الأخرى.

## الكلمات المفتاحية

الدلالة الصوتية-الجرس الصوتي-التناسق و الانسجام-الغرض البلاغي-أسرار الفاء -أسرار الباء -أسرار إذا- أسرار ثم.